المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا العمل هو رسالة للدكتوراه تقدم بها الباحث إلىٰ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت إشراف الأستاذ الفاضل الدكتور محمد سبيلا، وقد كانت تهتم أساسًا بفكرة الحداثة كما تجلت في الفكر المغاربي، غير أننا فضلنا -باتفاق مع الناشر- أن نختار منها ما يهم الفكر العربي عمومًا فيما يخص فكرة الحداثة الفكرية علىٰ أن نخصص للفكر المغاربي جزءًا مستقلًا ننشره لاحقًا بحول الله.

يمكن القول بأن قضية الحداثة والتحديث في الفكر العربي عمومًا جاءت كردة فعل علىٰ تحد أطل من الخارج. ولهذا اختلفت المقاربات فيما يخص طريقة الأخذ بالحداثة والتحديث في الفكر العربي. فمن قائل بأن مدخل الحداثة يجب أن يكون علميًا ومن قائل بأنها يجب أن تكون سياسية أو اجتماعية. ونحن هنا نذهب إلىٰ أن هذا المدخل يجب أن يكون فكريًا وثقافيًا، وهو ما سميناه بـ: «الحداثة الفكرية». وقد اخترنا لعرض هذه الفكرة وتحليلها ومناقشتها بعض النماذج الفكرية العربية التي تذهب المذهب وهي: محمد عابد الجابري ومحمد أركون وهشام جعيط. ويلتقي هؤلاء حول فكرة ترىٰ أن مدخل

الحداثة بالنسبة للفكر العربي هو: إعادة قراءة التراث. غير أن هذه الفكرة لا تفيد عند هؤلاء معنىً واحدًا، وهو ما سنحاول تفصيله في ثنايا هذا العمل.

ونبدأ هنا بالتساؤل: هل قُدر للفكر العربي وللذات العربية أن لا تتحرك إلا إذا استفزت من الخارج؟ بمعنىٰ أن حركتها هي دائمًا حركة رد فعل. هل هذا يرتبط فقط بطبيعة الذات التي تعيش التخلف الحضاري أم أنها ميزة أصبحت لصيقة بالذات العربية بعد تراكمات عصور التخلف والانحطاط؟ أسئلة كثيرة لا يمكن الإجابة عنها كلها في هذا البحث، لأنها ستحيلنا إلىٰ قضايا أخرىٰ ليست من موضوعنا، لكننا سنحاول استحضارها في كل لحظة ونحن نعالج قضية الحداثة في الفكر العربي، هذه القضية التي انطلقت ولا تزال من محاولة قراءة الذات، والذات هنا هي الذات التراثية باعتبار أن مشروع التحديث في الفكر العربي قد تأسس في تلك اللحظة التي حاولنا فيها قراءة ذاتنا علىٰ ضوء التطورات الحضارية التي عرفها العالم، وتتمثل هذه الذات التراثية في كل ما أنتجه العقل الإسلامي في فترات متواصلة من تاريخه تجلىٰ في ميادين علمية متعددة مثل الفقه والتفسير والفلسفة والآداب.

عندما نتحدث عن فكرة الحداثة إذن فنحن نعني تحديدًا تلك المحاولات التي قام بها المفكرون العرب لتحديث الفكر العربي. وفي هذا الإطار فإن بحثنا سينصب علىٰ الحداثة الفكرية والتي تعني فيما تعني أن هنالك «تيارًا حداثيًا يكاد يركز اجتهاده علىٰ تغيير وتجديد البنية الفكرية والثقافية كأساس للتحديث الشامل. وهو تيار في معظمه عصري بحق يرتبط بالمفاهيم والقيم الأساسية للحضارة العصرية. وهو لا يدعو إلىٰ حضارة أخرىٰ متميزة. وإنما يدعو إلىٰ الامتزاج والاندماج في هذه الحضارة مع مراعاة خصائصها الذاتية والقومية كسبيل لتنمية هذه الذاتية والارتفاع بها إلىٰ مستوىٰ العصر. وستحدد بدايات هذا التيار الفكري مع بداية القرن ممثلًا في الجهود التنويرية الكبيرة التي قام بها

شبلي شميل وفرح أنطوان وسلامة وغيرهم.. وستجد امتدادًا لها في مفكرين معاصرين من أمثال العروي والجابري وأدونيس وفؤاد زكرياء وبرهان غليون وغيرهم»[1]. إن الأمر يتعلق إذن بالبحث في الفكر. وإن كان هذا البحث سيحيلنا إلىٰ إشكالية علاقة الفكر بالواقع. ونعني بذلك مدىٰ إمكانية فصل فكرة الحداثة كفكرة فلسفية ونظرية عن أبعادها الواقعية. ويبدو لنا أن محاولة البحث لكل فكرة عن أساسها الواقعي سيجعلنا عاجزين عن تلمس القيمة النظرية للأفكار المطروحة. بل إن هذا قد يؤدي بنا إلىٰ تحليل أيديولوجي بدل التحليل العلمي. ومفهوم الحداثة الفكرية هو بالأساس مفهوم غربي، ارتبط بالمسار التاريخي الذي عرفته النهضة الأوروبية التي كانت البداية فيها فكرية ثم علمية ثم جاءت الثورة الصناعية كمحصلة لكل هذا. لقد كانت البداية في الحداثة الغربية فكرية، والفكر هنا هو مجموع التصورات التي نكونها حول الذات وحول العالم والأشياء. وقد تغير هذا في الغرب، وتجاوز كل الأطروحات الخرافية وكل المفاهيم والأفكار التي لا يقبلها العقل والتجربة. وكانت نتيجة ذلك تبدلًا في طرق المعرفة والفهم والقيم وفكرة الإنسان عن نفسه. ووصل هذا مداه مع فلاسفة الأنوار، وتجسد عمليًا بالثورة الصناعية والتكنولوجية التي نرىٰ مختلف صورها الاقتصادية والاجتماعية الآن. لقد كان المسار إذن طويلًا لكن البداية كانت صحيحة وثابتة. ويبدو لنا أنه لا يمكن القيام بثورة حداثية حقيقية إذا ما عكسنا المسار.

إن الحداثة الفكرية إذن هي مجموع الإنتاج الفكري الذي يحاول أن يستقل ولو نسبيًا عن الإكراهات السياسية والأيديولوجية للبحث عن مكامن الضعف في

---

(١) عن le monde diplomatique - في مجلة الفكر العربي. يوليو/ غشت ٩٨. مأخوذ عن: محمد سبيلا، عبد السلام بن عبد العالي: نصوص مختارة -الحداثة- دار طبقال للنشر. سنة ١٩٩٦. ص٩٨.

الذات من أجل بنائها في جانبها الأهم وهو الجانب الثقافي والفكري. ويبدو أن طريقة تغيير الواقع ووضع مشاريع التحديث تعود في جانبها الأكبر إلىٰ طريقة تصور هذا الواقع والحكم عليه. ورغم أننا أكدنا عدم الرغبة في الدخول في مناقشة إشكالية علاقة الفكر بالواقع، فإنه من الضروري إبراز الدور الأساسي للفكر في تغيير الواقع. ودليلنا علىٰ ذلك هو الأثر الكبير للفكر الحديث وفكر التنوير خاصة في التقدم الفكري والعلمي والاجتماعي الذي عرفته البشرية في القرنين الماضيين. والفكر هنا هو مجموع التصورات والأحكام التي نحملها عن الواقع. فكلما كانت هذه الأحكام صحيحة وعقلانية وعلمية كلما كانت إمكانية التغيير الصحيح أكبر. ولهذا فإن الرأي عندنا هو أن كل محاولة لتحديث البنيات الحياتية قبل تحديث الفكر هي محاولة ذات فائدة قليلة.

إن كل محاولات التحديث التي اقتصرت علىٰ الجوانب التكنولوجية والحياتية وحتىٰ السياسية أدت فقط إلىٰ تكريس التبعية وتعميق شعور الاتكال علىٰ الغير وزيادة مظاهر التخلف، والواقع العربي خير شاهد علىٰ ذلك. لقد بدأ الغرب نهضته بالحداثة الفكرية التي برزت مع ظهور الجامعات وانتشار الفكر العقلاني وشيوع المنهج التجريبي واتساع الأفق الثقافي لكافة الجماهير وبداية النهاية للتفسيرات الخرافية التي كرستها الكنيسة حول الكون والإنسان. بينما كانت الصورة التي تصورها المفكر العربي هي أن الحداثة ستتحقق في اليوم الذي سنمتلك فيه علم وتقنية الغرب، أو نطبق فيه بعض الأنظمة الإدارية والسياسية، ولو دون تغيير لبنية الاستقبال الفكرية والثقافية. والذي حدث هو العكس، إذ كلما ازددنا استيرادًا لما جد من التقنيات كلما ازدادت تبعيتنا الاقتصادية وتعمقت أزمتنا الاجتماعية وتدعمت مواقف الرفض للحداثة والتغيير، مما نتج عنه أن تحولت فكرة الحداثة إلىٰ شعار للتراشق الأيديولوجي أكثر من كونه مشروعًا واضح المعالم من أجل التحديث. وهو ما يسميه الأستاذ

محمد سبيلا بالحداثة الكسيحة، والتي تعني نقل مجموعة من أشكال الحداثة دون أن يرافق ذلك تغير البنيات الفكرية والسياسية المقابلة والمرافقة لها. وهو أمر نلاحظه منذ بدايات مشاريع الإصلاح، سواء في المشرق أو المغرب[1]..

إن الحداثة الكسيحة لا تعمل علىٰ تأسيس أرضية اجتماعية واقتصادية وسياسية صلبة وبنية ثقافية حداثية تغير العقليات التقليدية وتقوض مفعولها. فلا حداثة بدون تنظيم عقلاني للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. وأما بالثقافة الكسيحة فإنه يتعذر التعايش الطبيعي مع مكتسبات الحداثة بما في ذلك المستجدات التقنية والعسكرية والترويجية والاستهلاكية[2]..

كل هذه الأسباب جعلت من اللازم العودة إلىٰ أساس العمل وهو إقامة حداثة فكرية تتجاوز المظاهر وتبحث في الجذور، وهذه الجذور لن تكون إلا بناء الفكر قبل أركان التحديث الأخرىٰ. هذا ما قام به مجموعة من المفكرين العرب عبر بوابة النقد: نقد العقل ونقد المنهج ونقد طرق قراءة التراث، وكانت أداة النقد هي العقل وأيضًا حسن الاستفادة من تطور الفكر المنهجي المعاصر وخصوصًا في ميدان العلوم الإنسانية.

تعني العقلانية بناء مفهوم جديد للعقل داخل الفكر العربي وتكريس المنهج العقلي في دراسة التاريخ وقراءة التراث. ويعني النقد وضع مناهج جديدة ومتجددة للقراءة والتأويل. وقد اتجه هذا المشروع للتراث باعتباره يشكل

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلىٰ: إدريس جبري: عوائق الحداثة بين الثقافة والمدرسة. مجلة فكر ونقد. عدد ٤٢. الرباط. أكتوبر ٢٠٠١. من صفحة ١٣٣ إلىٰ ١٤٤. وهي دراسة مخصصة لتصور الأستاذ محمد سبيلا لفكرة الحداثة. وأيضًا يمكن الرجوع إلىٰ مؤلف: د. محمد سبيلا: المغرب في مواجهة الحداثة. منشورات الزمن. كتاب رقم ٤. الرباط. يوليوز ١٩٩٩.

(٢) نفسه. ص١٣٧.

الأساس لبنية التفكير العربي. فأن نعيد قراءة التراث بناء علىٰ مناهج جديدة في علوم الإنسان وبما يتوافق مع تطور المعرفة المعاصرة يعني في الأخير تهيئ العقل العربي لإنجازات الحداثة. مادة العمل في هذا كله بالنسبة للفكر المغاربي هي التراث الذي يجب إخضاعه للنقد العقلاني من أجل تجلية مظاهره الوضاءة وعما لا يزال صالحا فيه لتغذية بنية الفكر العربي. نحن إذن أمام إعادة قراءة وتأويل، ووسيلتنا في هذا هي مجموع المنجزات الفكرية والعلمية والمنهجية التي حصلت في المعرفة المعاصرة. ومثل هذا العمل سيجعلنا أمام أسئلة أخرىٰ تتناول مفهوم الهوية والكونية والعلاقة مع الآخر، وهي قضايا تشكل موضوع النقاش والصراع داخل الفكر العربي من خلال تياري الأصالة والمعاصرة. وأيضًا فإنها تعتبر هاجسًا مشتركًا عند أغلب المفكرين المغاربيين، ومن خلالها سنلج فضاء التأليف الفلسفي المغاربي.

سنضيف إلىٰ ذلك فكرة أخرىٰ يجب التأكيد عليها ونحن نناقش فكرة الحداثة، والتي ستوجه عملنا بل تعتبر جزءًا هامًا من الأطروحة التي تؤطر نظرتنا إلىٰ هذه الفكرة، وهي أن العناصر السابقة والتي ركز عليها، لا يفيد إذا لم تكن نتائجها هي نشر قيم الحرية والديموقراطية. فالثورات الفكرية في الغرب، والتي استمرت لوقت طويل انتهت في الأخير إلىٰ ترسيخ فكرة الحرية وفكرة الديموقراطية. وكان ترسيخ هذه الأفكار والقيم هو الذي عجل بالتقدم الكبير الذي حصل فيما بعد علىٰ جميع الأصعدة. أما إعادة قراءة التراث الفكري والديني في أروبا فقد استمر فيما بعد بل إنه لا يزال مستمرا إلىٰ الآن. لكن الأمر الذي لا يمكن تأجيله إقامة وضع ديموقراطي وحر. ويبدو أن غياب هذا الأمر هو الذي ساهم في تأخر قيام الحداثة في العالم العربي. فرغم الجهود الفكرية التي بذلت في مجال الدعوة إلىٰ العقلانية وإعادة قراءة التراث؛ فإن هذا لم يكن كافيا لنعيش وضعًا حداثيًا. لهذا فإننا ننتظر من هذا العمل أن يستطيع

الربط بين مشروع مفكرينا لإعادة قراءة التراث وبين سبل نشر الحرية والديموقراطية. سنكون هنا بإزاء حداثة شاملة، وليس أمام حداثة جزئية تحمل من الأيديولوجية أكثر مما تحمل من الفكر الحداثي الحقيقي. وهنا يجب دحض كل الرؤىٰ التي تتصور أننا بنقل التكنولوجيا أو برفض أفكار الماضي أو بنقل بعض الأشكال الاجتماعية أو السياسية مجزأة، يمكننا أن نقيم حداثة حقيقية. المثال علىٰ ذلك هو أنه لا يخفىٰ علينا أن بعض دعاة الحداثة عندنا يكونون أبعد عن الحداثة بمعناها الديموقراطي عندما يكونون أمام حالات تدعوهم إلىٰ قبول الديموقراطية وحرية التعبير وقبول الرأي الآخر. فالحداثة إذن لا تتجزأ، بل إنها نسق شامل يجب قبوله في شموليته.

إذن، غايتنا والمعلم الأساسي في دراستنا هذه هو المساهمة، ولو بجهد بسيط، في بناء الحداثة الفكرية في بعدها الذي ذكرنا ومن داخل تأمل فلسفي يؤمن بالحوار المستمر كسبيل للتقدم بالفكر العربي عمومًا.

ولهذا فإن مقاربتنا لفكرة الحداثة في التأليف الفلسفي ستكون من خلال ما ارتبط ببناء هذه الفكرة من خلال القضايا التي ناقشها هؤلاء المفكرون والمناهج التي وضعوها لبناء فكر حداثي والمفاهيم التي وظفوها ومجموع تصوراتهم لعلاقة الأنا والآخر، وأيضًا رصد الأبعاد الفكرية لهذه الأعمال وقيمتها. إن مجموع هذه الموضوعات هي التي شكلت في رأينا عناصر النسق الفكري الحداثي العربي. ولهذا فإن كل عملنا سيمر عبر طرح هذه المسائل، والتي نوقشت عمومًا في التأليف الفلسفي العربي وهو يطرح إشكالية التراث. والرأي عندنا أنه لا يمكن عرض فكرة الحداثة إلا بهذه الطريقة. وهو خيار قد يكون صائبًا وقد تعتريه هفوات سواء كانت فكرية أو منهجية، ولكننا نقدمه للقارئ ليستطيع أن يعرف النسق الذي نشتغل فيه ونحن نعبر كثيرًا من العناصر الجزئية التي تشكل بنية هذا النسق الذي نبنيه من خلال هذا العمل. إضافة علىٰ كل هذا

فقد قدمنا التأليف الفلسفي العربي من خلال قضاياه ومناهجه ومفاهيمه، لتصورنا أن القضية الأساس هي ذاتها: قضية النهضة والحداثة. وقد مكننا هذا من أن نكون في وضعية نستطيع بها المقارنة وتعميق التحليل وفتح أبواب النقد.

إننا ونحن نخوض هذه المغامرة الفكرية وسط كل ما ألف في الموضوع وما قدم من أطروحات، قد نحس أو قد يرىٰ غيرنا بأن مثل هذا العمل الذي نقوم به هو عمل مكرور وبدون جدوىٰ، وهنا نريد أن نقدم بعض المبررات الإضافية علىٰ ما نقوم به. ومن ذلك علىٰ الخصوص أنه إذا كان العمل مجرد عمل زائد فإن هذا الحكم قد ينسحب علىٰ كل ما يؤلف في الموضوع في كل يوم، ومن جهة أخرىٰ فإن هذا العمل ورغم معالم المنهج الذي سنتبعه في إنجازه، ليس مجرد وصف بريء ومحايد، بل إنه يضمر رؤية ما، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وأهم ما في هذا المساهمة المتواضعة في تكريس الحداثة الفكرية وسيادة العقل في توجيه الفكر والفعل، ونحن نؤكد هذا الآن -كما سنؤكد عليه- علىٰ مدىٰ مراحل هذا العمل. ولن ندخل هنا في مناقشة علاقة المنهج بالرؤية، فذلك سيكون موضوع فصل قادم، ولكن ما نريد التأكيد عليه هنا هو أن تعدد وكثرة الأطروحات في مجال الفكر الإسلامي تؤكد راهنية الموضوع وحاجة الثقافة العربية لكل هذا، وقوة الدافع الفكري له في هذه الظروف الخاصة لفكرنا وثقافتنا.